شعر الطبيعة في العصر الحمداني

للدكتور / على محمد على طلب
الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد بالكلية

١ ــ تمهـــيد :

كانت الطبيعة ــ وما تزال ــ الأم الرؤوم ، والمعلم الأول للانسان نشأ فى كنفها تمده بخيراتها وتوفر له سبل العيش ، وهى تكشف لـه فى الفينة بعد الفينـة عن سر من أسرارها ، حتى وصـل الى ما وصـل اليه اليوم من مدنية وحضارة .

ووصف الطبيعة بخاصة من أسمى ما يهدف اليه الشـاعر ، ويدل على تأثر بالجمال والسحر الخلاب والطبيعـة الساحرة والفتنـة التى أودعها الله فى الكون ، ليدرك أسرار الوجـود ، وينفذ الى حقـائق الأشياء .

ويتباين الشعراء فى مقدار تأثرهم بالطبيعة المحيطـة بهم ، وفى ملكتهم المعبرة عمـا يجيش فى صـدورهم وعواطفهم ، فمنهم من يقف عند حد المرئيات أو السمعيات ، ينقل اليك ما فى الطبيعة ملونا تلوينا خفيفا باحساسه الفنى وشعوره العاطفى ، ومنهم من يشخصـها ويخلع عليها الحياة من روحه هو ، وينفذ ببصيرته الملهمـة الى سرها المغلق ، ويهيم فى أودية الخيال يغترف من ينابيعها ، ويقتطف من أزهارهـا ، وتنعكس نفسه على ما وصل اليه ، فاذا الذى لهج به لسانه أجمل من الطبيعة وأوفى مقصدا ، لأنه فسرها وشرح آياتها ومعجزاتها ، ونقـل كل ذلك اليك فى صورة خلابة تزيده بهاء ورواء .

والعرب أمة صنعتها الصحراء بجبالها ووهادها ورمالها وابلها وخيولها ووحوشها وطيورها وحياتها وأفعاعيها وكلأها وعشبها ومراعيها وسحبها وبرقها ورعدها وشمسها وكواكبها وليلها ونهارها وأمطارها وما الى ذلك ، وكان لها تأثير كبير على خيالهم وانفعالهم للجمال المبثوث فى الكون الذى أودعه الله ، وما أن خالطوا الشعوب المتباينة، وانساحوا فى أرجاء المعمورة ، واتخذوا لهم أوطانا فى البلاد التى فتحوها شرقا وغربا حتى كان للبيئات الجديدة بما فيها من مناظر وشعوب وحضارات وثقافات أثرها العظيم فى شعرهم وطريقة تفكيرهم، ومن ثم تأثر شعر الطبيعة بهذه الظروف الجديدة ، ونما وتطور وتحور، واختلف بعض الاختلاف عن شعر الصحراء(١) .

كان وصف الطبيعة عند الشعراء فى صور بديعة خلابة صادقة التصوير ، متقنة الأداء تنقل الى السامع والقارىء احساس الشاعر كاملا على الرغم من ميلهم الى الايجاز ، ولكن طريقتهم فى التعبير جعل معانيهم مفهومة واحساسهم بينا ، وأسبغ على شعرهم جمالا فطريا خلابا .

وكان من الطبيعى أن يلجأ الشعراء الى الطبيعة ، يستمدون منها تشبيهاتهم لأن مناظرها تلح على حواسهم صباح مساء ، فتشبعت بها مخيلتهم ، ولم يجدوا لهم مندوحة حين يتغزلون أو يمدحون أو يصفون أو يهجون أو يطرقون أى موضوع من موضوعات الشعر الا الالتجاء الى الطبيعة .

فهنا يتجلى بوضوح وضع الشعراء أمام الطبيعة ، فالشاعر العربى لا سبيل له الا أن يتملى الطبيعة ، ويندمج اندماجا كليا فيها ، وان

---

(١) انظر وصف الطبيعة للأستاذ السباعى بيومى وآخرين ص ٢ وما بعدها ط دار مصر للطباعة القاهرة .

يتحد اتحادا تاما بمشاهدها ، حتى نحس بالطبيعة من خلال الانسان، وندرك الانسان من خلال الطبيعة •

فالشاعر الذى يقف أمام الطبيعة ، ويتطلع الى أحد مناظرها ويعجب به ، ثم يقتصر على تصوير ذلك الذى وقف عنده وتطلع اليه وأعجب به على تصوير المنظر الخارجى الذى فطن الى جماله بجميع أبعاده وتفاصيله ، فهو لذلك كله أقلها حظا من الثراء الفنى • فلا فرق بينه وبين (آلة التصوير) ، وما من أحد يعد ما تعطى هذه الآلة من الفن ، الا اذا أضاف اليه الانسان المصور شيئا من ذاته ، أضاف ما يدل على رؤيا فردية له ، وعلى تشكيل جديد لعناصر المنظر الظاهرة أمامه(٢) •

والشعر فى مجال الطبيعة الى جانب ذلك انفعال مصوغ فى لغة موسيقية، ولابد أن يتفاوت الشعراء فى قدراتهم على الانفعال وتعمقه واثرائه ، وعلى الصياغة الشعرية وأنماطها ومعرفة تراثها ، وعلى التعبير اللغوى واتجاهاته والاطلاع على ذخائره وعلى البناء الموسيقى ، والتوفيق بين أنغامه ، واخضاع العبارة اللغوية له ، تفاوتهم فى الخضوع للانفعالات والصياغة والتعبير والبناء والموسيقا •

لذلك كله كان تراث كل أمة فى تجارب شعرائها مع الطبيعة ، من أصدق الشواهد على عمق الصلات التى قامت بين أبنائها وبين الكون •

اذن فالشاعر يحس أمام مشاهد الطبيعة بالوشائج الوثيقة بينه وبين شتى الموجودات التى تدرج بين عينيه ، وتقع فى مجال حسه ومن ثم تجيبه مشاعره فى الأرض وفى السماء •

---

(٢) انظر الطبيعة والشاعر العربى د• حسين نصار ص ١٥ ط دار مصر للطباعة القاهرة ١٩٧٢ •

وعلى ضـــوء من هدى « الصـــدق النفسى والفنى » الذى تتبـــع الشعراء وتحروه فى كل تجاربهم ، وفى شـــتى مناحى شـــعرهم ... استطاعوا أن يرهفوا ذواتنا أمام مشاهد الطبيعة ، وأن يمهدوا لنـــا سبيل استشعار الحياة الدافقة فى كافة مظاهرها ، وأن نتحرق شـــوقا الى معانقة الوجود(٣) .

والشعر فى مجال الطبيعة يشمل : الطبيعة الصامتة وتحتوى على الظواهر الكونية مثل الجبال والكواكب والليل والنهار وما الى ذلك .

والطبيعة الحية : وهى تضم الحيوان من خيل وذئاب وكـــلاب وطيور وهوام وما الى ذلك .

٢ ــ اتجاهات شعر الطبيعة فى عهد الحمدانيين :

الحمدانيون ينتسبون الى حمدان بن حمدون أحد رجال تغلب ، وقد برز ابنه الحســين فى خدمة الخليفة العبـــاسى المتقى ، فأغدق عليه وعلى اخوته ألقاب الشرف ، فولى منهم الموصل والجزيرة ، حتى اذا حلت سنة ٣٣٣هـ بسطوا سلطانهم على حلب وشمال الشام أيضا ، وكان على أخو الحسين الذى عرف بعدئذ بسيف الدولة الحمدانى ، هـــو الذى انتزع فى ذلك العام حلب وحمص من الأخشـــيديين ، ثم كانت له مواقع مشـــهودة مع البيزنطيين انتصر فى الكثير منها وســـجلها كثير من الشعراء فى أشعارهم(٤) .

والمهم عندنا أن نتكـــلم عن شعر الطبيعـــة فى العصر الحمـــدانى فنقـــول :

---

(٣) الطبيعة فى شـــعر المهجـــر د. أنس داود ص ٣ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة .

(٤) انظر المتنبى للدكتور زكى المحاسنى ص ٥ ط دار المعـــارف القاهرة (طبعة ثالثة) .

نبغ شعراء الحمدانيين فى فن الوصف أكثر من نبوغ أسلافهم من شعراء العربية ، وبخاصة فى وصف الطبيعة ، فقد وصفوا كل ما تقع عليه النظر فى الحياة العامة والخاصة .

فمن مذاهبهم الجديدة فى الطبيعة وصف الأزهار « أو فن الزهريات » الذى ابتكره أبو بكر الصنوبرى ، وقد تأثر كثير من الشعراء فى الأمصار الاسلامية بهذا المذهب الجديد ، وكان شعر الطبيعة بالغا حد الذروة فى الجمال ، وتميز بالصدق الفنى والشعورى ، وقد انقسمت الطبيعة الى روضيات وزهريات ومائيات وثلجيات،وكان على رأس القائلين فى هذه الأغراض الصنوبرى وكشاجم والسرى الرفاء وأبو الفرج الببغاء والوأواء الدمشقى والخالديان (أبو بكر محمد الخالدى وأبو عثمان سعيد الخالدى)(٥) ، والزاهى والنامى .

ويقول الدكتور سيد نوفل فى كتابه (شعر الطبيعة فى الأدب العربى) : « ولا ينبغى أن نلتمس شعر الطبيعة عند المتنبى وأبى فراس الحمدانى وأبى العلاء المعرى ، فقد كان الأولان شاعرين سياسين يخدمان السياسة ، ويبالغ أولهما فى خدمة مطامعه . أما المعرى فقد انصرف مع أخذه بالمدح الى الفكر والتأمل وخدمة الشعر عن طريق البراعة النظمية والثقافة اللغوية ، وكان هذا طبيعيا فى رجل رهين آلته وحبيس بيته »(٦) .

ولاشك أن للبيئة الطبيعية فى العصر الحمدانى أثر فى نفوس الشعراء الذين ذكرناهم،فهم يستمدون منها الصور التى تزين شعرهم،

---

(٥) انظر فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين للدكتور مصطفى الشكعة ص ٤٥١ ، ٤٩١ ط الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٨ .

(٦) شعر الطبيعة فى الأدب العربى د. سيد نوفل ص ١٩٤ ط مصر القاهرة ١٩٦٥ .

ومن ثم فهم يتأثرون بالطبيعة وجمالها أيما تأثير ، وقد رأينا كثيرا من الشعراء يصفون الطبيعة ، ولكن لم يمنحها الحياة إلا الشعراء الذين تميزوا برقة الشعور وصفاء الوجدان ، وكان لهم ذوق خاص في هذا المجال ، فالشعراء قبلهم كانوا يصفون الطبيعة وصفا يتعلق بشكلها الخارجي ، أما هم فقد كانوا يصفونها من داخل أنفسهم وروحهم ، اذ كانوا شديدى الحس بها وشديدى العشق لها •

والشعراء فى هذا العصر كثيرا ما يستريحون الى الطبيعة لأنها ظل ظليل ومهاد وثير وهواء بليل ، وراحة من عناء البيت وضجة المدينة ، فلا يغدون بعدئذ أن يستريحوا اليها ، وقد يمنحها الشعراء حياة من عندهم ويتم التعاطف بين الشعراء وبينها فيتم بعد ذلك ثروة غزيرة من الشعر والشعور(٧) •

وهكذا كانت الطبيعة رافدا من روافد الالهام عند الشعراء ، واستطاع الشعراء أن يمنحوها الحياة ، وأن يجسموا الألوان والظلال والأنوار وأن ينقلوا الينا صورا رائعة من جمال الطبيعة التى تأثروا بها وعاشوا العمر كله متيمين بسحرها وجمالها •

ولا عجب ان تأثروا بالطبيعة وافتنوا بجمالها وسحرها ، وأبدعوا فى تصويرها ونقل مناظرها الرائعة الجذابة ، فالطبيعة توحى للشعراء فى كل عصر بكثير من المعانى والآثار الأدبية الرائعة ، وقد تغنى بها الشعراء وصوروها فى مختلف مظاهرها ، ورسموا لها صورا تجمع بين صدق الأداء وبراعة الوصف ، واظهار الدقائق والتفاصيل وحرارة الاحساس وجودة التصوير •

---

(٧) انظر : ابن الرومى حياته من شعره للأستاذ عباس محمود العقاد ص ٢٨٩ ط حجازى ١٩٣٨ القاهرة •

والشـــعراء فى العصر الحمدانى قد برعوا فى مجال الطبيعة ، فقد كانت لهم لوحات فنية جميلة ، جمعت بين التشخيص والتصوير ، علاوة على الاحساس بالجمال والشاعرية والابداع الفنى •

٣ ــ شعر الطبيعة فى العصر الحمدانى :

لقد أجاد الشعراء فى العصر الحمدانى فى وصف الطبيعة لأنهم عاشوا فى بيئة مزهرة (والشاعر ابن بيئته) كما يقولون ، حيث الطبيعة الساحرة الفتانة التى تنثر فيها البســاتين الوارفة الظلال ، والورود والرياحين ، ولهذا كان الشعراء يتمتعون بالجمــال الزاخر الفتان فى فصل الربيــع ويرتعون فيه مزهوين ، كأنهم يفهمون سحر الرياض المزهرة ، ويقرأون أسرار الجمال ، ويجلسون فى أحضان الطبيعــة الساحرة حيث الظــل الظليل والنســيم البليل والورود اليانعة ، ويســكرون للزهر والعطر ويتأملون نبات الشــقيق والنرجس والسوسن وغــيرها من الأزهــار الفــاتنة •

وكان لهم قدرة فائقة عــلى التصوير والتجســيم والتشخيص ، واستطاعوا أن ينقلوا الينا شعر الطبيعة بريشة فنان حاذق ومصــور بارع وكثيرا ما تجد لهم لوحات فنية رائعة تدل على مقدرتهم فى مجال التصوير ، وتدل من جهة أخرى على شاعريتهم وابداعهم الفنى •

ولم يكتف الشعراء بوصف المنــاظر الخارجية ، ولكننــا ندرك فى وصفهم للطبيعة أنهم وصلوا الى درجة (الاحساس بالجمــال) وهذه درجة سامية من درجات الرقى فى مجال الفن ، ويكون الشاعر فى هذه المرحلة ذواقة للجمال الذى أودعــه الله فى الطبيعة والكون ، وحينئــذ يملك عليه هذا الاحساس أقطار نفسه الشــاعرة ، ويستبد الاعجــاب بوجدانه ، ولكنه مع ذلك لم يفقد صلته بالمنظر الطبيعى أمــامه ، بل يحتفظ بجماله الظاهر الذى أحسه فى أشكاله وألوانه •

والآن جاء دور التطبيق والتحليل والدراسة ، على شعراء الطبيعة فى العصر الحمدانى ، لندرك أن الشعراء فى هذا العصر كانوا يستقون أفكارهم وصورهم وخيالهم الشعرى من وحى البيئة الطبيعية التى تفيأوا ظلالها وعاشوا فى ربوعها :

أولا : الطبيعة فى شعر الصنوبرى(٨) :

لقد نبغ الصنوبرى فى مجال شعر الطبيعة فى عصر بنى حمدان ، ويكفى أنه ابتكر « فن الزهريات » وأجاد فيه اجادة تامة ، وأضفى عليه كل آيات الحسن والجمال ، ومن ثم فقد قالوا « روضيات الصنوبرى كما قالوا : خمريات أبى نواس ونقائض جرير » .

فاذا ما ذهبنا الى استجلاء صورة الطبيعة عند الصنوبرى فقد اجتمعت له المقومات ليكون شاعرا ممتازا فى الطبيعة ، وقد نشأ فى بيئة ثقافية تتغنى بالطبيعة ، وفى بيئة وطنية ذات نور وماء وحضارة ، وفى بيئة منزلية تتصل بالطبيعة فى النسب ، واجتمع له المرح وحب الرحيل واستجلاء محاسن الكون ، وبلغت فتنته بالرياض أن يتوفر على حديقته هذا التوفر ، وأن يستغنى بها عند الناس(٩) .

واذا ما رحنا نستعرض شعر الصنوبرى فى وصف الطبيعة فيقول : لقد عرف القدماء له أنه أول من تغنى بالثلجيات ، وقد يضيف الى

---

(٨) الصنوبرى : هو أحمد بن محمد بن الحسن الضبى الصنوبرى ، عاش حياته فى حلب ، وكان شيعيا وكان يكثر من مديح بعض الهاشميين من سلالة على بن أبى طالب ، وكان بارعا فى وصف الرياض وفى الخمريات . توفى سنة ٣٣٤هـ . (العصر العباسى الثانى للدكتور شوقى ضيف ص ٣٤٧ وما بعدها ط دار المعارف) .

(٩) انظر : شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص ٢٠١ وما بعدها .

ذلك وصف البستان وما فيه من أزهار ممتـدة حول القصور ، وكثـيرا ما يقرن وصف الربيع للخمر ، فهو ربيع الدنيا والسرور ، ويقرن كل ذلك الى الأمطار ولعـله أول من قرنها بالثلـج وانتشاره فى الطبيعـة حيث يقول :

ذهب كئوســـك يا غـلا م فإن ذا يـــوم مفضض
الجـــو يجـلى البيـا ض وفى حلى الدر يعـرض
أظـننت ذا ثلجـــا وذا وردًا على الأغصان ينفض
ورد الربيـــع ملـــون والورد فى كانون أبيض(١٠)

انه جمال الطبيعة قد تشاكل فى الربيع وفى الخريف وفى الشتاء ، فتشابه عليه واستولى على نفسه ، فعبر عنه هذا التعبير العذب البارع، واذا كان الربيع بهجة الحياة وشبابها ، فان الطبيعة موفورة الجمـال والمسرة ، والثلج يفتنه فى الشتاء كما يفتنه الورد فى الربيع .

وهو فى هذا النص يفرح بهذا اليوم من أيام كانون شهر الشـتاء القارس ، الذى يكسو الأشجار ثيـابا بيضاء ، وكأنها يـوم من أيام عرسها ، وهو يعب فيه من كئوس الخمر المذهبة الصافية ، فرحا بمنظر الثلج على الأغصان ، وورود تنقض على الأغصـان وعلى الأرض ، وورود بيضاء تكسو الطبيعة غلائل فضية بهيجة(١١) .

ولذلك نراه يفضل الربيع كما فضله من قبله ، لأنه يرضى حاسـته البصرية المفتونة باستجلاء الألوان النهمة الى النور والنور ، كما يرضى أذنه التى تطربها أصوات الطبيعة بأصوات القمرى والزرور والهزار ،

---

(١٠) ديوان الصنوبرى ص ٢٥٥ ط بيروت لبنان .
(١١) انظر : العصر العباسى الثانى د. سوقى ضيف ص ٣٦١ ط دار المعارف ١٩٧٧ .

أكثر مما يطربها العود أو الطنبور ، وكما يرضى أنفه الذى يمتلأ بأرج الربيع ، وعندها ينتشى فرحا مسرورا .

ولم لا يفتن بالربيع هـذه الفتنـة ، وهو يراه روح الحيـاة يكشف عن الجمال المستور ، ويرضى حـاجة القلب ، ويؤدى الى متاع عظيم يكبر فى عين الصنوبرى حتى يقدسه ، ويرى أن من يجافى الطبيعة بعيد عن هذا المتاع الروحى ، وأن النفوس الشاعرة هى التى تتمتع بالربيع ما شاء لها التمتع(١٢) :

انه يهتف بصـاحبته من النساء أن تتـأمل فى جماله الذى يمـلأ القلوب ، غبطة وابتهاجا حيث يقول(١٣) :

يا ريم قومى الآن ويحك فانظرى ... ما للربى قد أظهرت اعجـابها !
كانت محـاسن وجهـها محجوبة ... فالآن قد كشف الربيع حجابهـا
ورد بدا يحكى الخدود ونرجس ... يحكى العيون اذا رأت أحبـابها
وشـقائق مثل المطارف قد بدت ... حمرا وقد جعل السواد كتـابها
ونبـات باقلاء يشـبه نوره ... بلق الحمام مشيلة أذنابهـا
والسرو تحسـبه العيون غوانيـا ... قد شمرت عن سوقها أثوابها(١٤)
وكأن احداهن من نفـح الصـبا ... خود تلاعب موهنـا أترابها (١٥)
لو كنت أمـلك للرياض صـيانة ... يومـا لما وطىء اللئام ترابهـا

فهو يوقظ صاحبته لترى الطبيعة ، وقد حسر الربيع نقابها،فبدت خـدودها وعيونهـا ورؤسـها الزاهية ، وكأنما السرو غانيات أقبلت مشمرة عن سيقانها تريد الرقص فى هذا الجو العطر البهيج .

---

(١٢) انظر : شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص ٢٠٣ وما بعدها .
(١٣) ديوان الصنوبرى ص ٤٥٤ .
(١٤) السوق : السيقان جمع ساق .
(١٥) الخود : المرأة الحسناء الناعمة .

وهكذا يتصور الربيع متاعا كبيرا ، والحرمان منه عقابا شديدا • ويبلغ من تقديره لهذا المتاع ما نراه فى البيت الأخير حيث يقول : لو أنى أملك أمر الرياض لحرمت اللئام من الوطء على ترابها ، وهذا يدل على مكانة الرياض فى نفسه ، ومنزلتها فى قلبه •

والصنوبرى مغرم بالرياض أشد الغرم ، فهو يجد بالرياض وجدا ، لا يكاد يشبهه وجد ، وكان يشتد به هذا الوجد فى الربيع حين تأخذ الأرض زخرفها وازينت ، ويعبق الجو بروائح الأنوار والأزهار، وتتغنى الطيور على الأشجار ، وكأنما تتحول الرياض فى عينيه الى أعياد وأعراس حيث يقول(١٦) :

ما الدهر الا الربيع المستتير اذا ... أتى الربيع أتاك النور والنهر(١٧)
فالأرض ياقوتة والجو لؤلؤة ... والنبت فيروزج والماء بلور(١٨)
تظل تنثر فيه السحب لؤلؤها ... فالأرض ضاحكة والطير مسرور
حيث التفت فقمرى وفاختة ... يغنيان وشفنين وزرزور (١٩)
اذا الهزاران فيه فهما السر ... نای والنای بل عود وطنبور(٢٠)

فالصنوبرى يشير الى أن الربيع كأنه دكان ملىء بالجواهر،فهذه هى الأرض ياقوتة واللجو لؤلؤة والنبات فيروز والماء بلور ، والدنيا مليئة بالبشر والسرور ، والطيور تغنى ويشدو عندليبان بصوتهما

---

(١٦) ديوان الصنوبرى ص ٤٢ •
(١٧) النور : الزهر •
(١٨) الفيروزج : الفيروز وهو حجر كريم أخضر اللون •
(١٩) القمرى والفاختة : من الحمام ، والشفتين : اليمام،والزرزور: من العصافير •
(٢٠) الرنای والنای : من آلات الطرب •

الساحر ، وكأنما الدنيا كلها جوقة موسيقية تخلب الألباب بأغانيها الجميلة .

ويهتف بالناس أن يفتحوا عيونهم وأبصارهم فى الربيع ليروا مفاتنه(٢١) الخلابة ومناظره الفتانة .

وساعدته حاسته التصويرية والفنية على أن يصور زهر النرجس، فكثيرا ما فتن الصنوبرى بالنرجس،فهو أبهى زهور الشام وأكثرهاانتشارا فى الرياض والبساتين ، وقد تغنى به طويلا حيث يقول(٢٢) .

أرأيت أحسن من عيون النرجس ... أم من تلاحظهن وسط المجلس
در تشقق عن يواقيت على ... قضب الزمرد فوق بسط السندس
أجفان كافور حبين بأعين ... من زعفران ناعمات الملمس

فالشاعر يرى النرجس وقد زين الطبيعة والكون بجماله ونضارته وحسنه ، واذا حل النرجس فى مكان حل معه السرور وانشراح النفوس والأفئدة ، والشاعر يتخيله كالدر تتشقق عن يواقيت ويتمثلة قائما على قضب الزمرد فوق بساط من السندس الأخضر .

ولقد كان للصنوبرى حظ موفور ونصيب كبير من الوفاء بهذا الجانب فى مجال وصف الطبيعة ، وكان شعر الطبيعة عنده تصويرا صادقا لكل ما وقعت عليه عيناه من مظاهر الطبيعة ، وكان يميل فى مجال الوصف الى استيعاب الصورة والالمام بأطرافها واستحضار دقائقها ، وينقل الينا صورا نابضة بالحياة والحركة ، مما يدل على خصب خياله وقوة تصويره والمامه بالموصوف المامًا كاملا .

---

(٢١) انظر : العصر العباسى الثانى ص ٣٦٤ .
(٢٢) ديوان الصنوبرى ص ١٨٠ .

وهو يقلد ابن الرومى (٢٢١ — ٢٨٣هـ) فى مناظرة شعرية انتصر فيها للنرجس على الورد موردا من الحجج والبراهين ما يؤكد فضله على الورد ، وأنه يفوقه حسنا وجمالا ، وكأنما أراد الصنوبرى أن يعارضه فنظم مقطوعة أقام فيها معركة بين الأزهار حاول أن ينتصر للنرجس حيث يقول(٢٣) :

خجل الورد حين لاحظه النر ... جس من حسنه وغار البهار (٢٤)
فعلت ذاك حمرة وعلت ذا ... حيرة واعترى البهار اصفرار
وغدا الأقحوان يضحك عجبا ... عن ثنايا لثاثهن نضار (٢٥)
عندها أبرز الشقيق خدودا ... صار فيها من لطمه آثار (٢٦)
سكبت فوقها دموع من الطل ... كما تسكب الدموع الغزار
فاكتسى البنفسج الغض أثوا ... ب حداد قد خانها الاصطبار
وأضر السقام بالياسمين الغض ... حتى آذى به الاضرار
ثم لما رأيت ذا النرجس الغض ... ضعيفا ما ان لديه انتصارا
لم أزل أعمل التلطف للـور ... د حزارا أن يغلب النوار
فجمعناهم لدى مجلس فيه ... تغنى الأطيار والأوتار
لو ترى ذا وذاك قلت خدود ... تدمن اللحظ جولها الأبصار

انها معركة تجمع بين الورد والنرجس والبهار والأقحوان والشقيق والبنفسج ، صاغها الشاعر بحاستة الفنية واحساسه القوى ، وحشد لها من الأوصاف ما يشهد للشاعر بالتفوق على الأقران ، ففى هذه

(٢٣) ديوان الصنوبرى ص ٧٨ .
(٢٤) البهار : نبات أصفر اللون .
(٢٥) الأقحوان : زهر أبيض فى وسطه اصفرار وأوراقه مفلجة ، ولذلك يشبهونه بالأسنان .
(٢٦) الشقيق : ورد كبير أحمر اللون .

اللوحة الفنية نرى الشاعر يصف هذا المنظر الطبيعى وكأننا نراه من خلال هذه اللوحة البارعة ، ويمضى الصنوبرى على هذا النمط واصفا القتال الذى دار بين النرجس والأزهار المختلفة ، وكل منها يبوء بالهزيمة أمام النرجس وما يسلط من سهام عيونه الساحرة التى تسلب اللب وتخطف الفؤاد .

وهذه الروح المحايدة التى تتذوق الجمال فى ألوان الزهر تبدو فى معركته الكبرى التى يقيمها بين الزهور ، اذ ينصب نفسه حكما بينها ، منقذا النرجس الضعيف الغض من حملات الزهور عليه ، مؤلفا بين الطبيعة الصامتة والطبيعة الحية فى مجلس فاتن ، لقد مثل رواية جعل النرجس بطلها ، ونفسه حاميا له ، ومثل الورد فى موقف معاكس تلتف الزهور جميعا حوله وتؤيده فى المعركة(٢٧) .

والطريف عدا ما سبق هو تفسير أشكال الزهور فى هذه المعركة على نحو بديع ، تظهر فيه مميزات الصنوبرى وطريقته التى تعنى بابراز المعانى والقصد فى البديع . وقد مثل ضعف النرجس فى مواضع أخرى من شعره ، وروح الشاعر ماثلة فى العناية بابراز الشكل والصورة(٢٨) .

ولا نترك الشاعر الا بعد أن يتحفنا بشعر فى نهر «قويق» الكائن بحلب ، وفيه مسة من الاحساس بوحدة الوجود ورعشة من الاندماج فى مظاهر الطبيعة حيث يقول(٢٩) :

---

(٢٧) انظر : شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص ٢٠٨ .

(٢٨) انظر : نهاية الأرب للنويرى ١١/٢٣٠ ط دار الكتب المصرية بالقاهرة .

(٢٩) الروضيات من شعر الصنوبرى لراغب الطباخ ص ٤٣ ط حلب ١٩٣٢ .

اذا ما الضـــفادع نادينه قويق قويق أبى أن يجيبـــا
وتمشى الجرادة فيه فلا تكاد قوائمهـــا أن تغيبـــا

فاذا ما نظرنا الى البيت الأول نجد التوافق الصوتى بين اســم النهر ونقيق الضفادع ، ويرجع ذلك التوافق فى نفس الشاعر الحساسة يتعاطف مظاهر الوجود المختلفة ، على أنه نداء ملحف من الضــفادع للنهر الصــامت فى سيره ، المــاضى فى ســبيله دون التفات ، وتخطــر الجرادة فى مياهه ، هى لمسة أخرى تضاف لتأكيد هذا الاحساس ، ولكن البيت الأول هو الذى يوحى الينا باندماج الشاعر فى الطبيعة واحساسه بوحدة الموجودات وتناجيها والتنــادى من الضفادع ، والصــمت عن الاجــابة بل الاباء ــ وهو فعل فيــه ارادة ــ من النهر(٣٠) وهــذه اللمسات من الندرة بمكان فى الشعر العربى •

فالصنوبرى شاعر من شعراء العربية المتازين فى وصف الطبيعة، توفرت له عوامل التفوق فى فنه ، من الحب والصدق وارهاف الحواس والتأمل فى الطبيعة وتصويرها جمة النشاط والحركة فى صور انسانية، وهذا نتاج طبيعى لعصره وبيئته ونشأته •

ثانيا : الطبيعة فى شعر الخالديين(٣١) :

نشأ الخالديان فى بيئة مزهرة بالموصل وفى أطراف حلب ، حيث

---

(٣٠) انظر الطبيعة فى شعر المهجر ص ٢٣ •

(٣١) الخالديان : أولهما أبو بكر محمد الخالدى وثانيهما أبو عثمان سعيد الخالدى • نشأ معا فى قرية صغيرة قرب الموصل هى (الخالدية) وأقبلا معا على التعليم ، ورحلا معا الى الموصــل نفســها حيث لمعت أسرة الحمدانيين واختلف اليها الشعراء ، وكانت لهما ملكة فى القول والنظم وقد اتصلا بسيف الدولة ومدحاه • وتوفى أبو بكر محمد الخالدى سنة ٣٨٠هـ وتوفى أبو سعيد عثمان الخالدى سنة ٣٩٠هـ •

الطبيعة الساحرة الفتانة التى تنتشر فيها البساتين والورود والرياحين، ولذلك كان الشاعران يستمتعان بالجمال فى فصل الربيع ، ويرتعان مزهوين بجمال الطبيعة ، ويعيشان فى أحضان الطبيعة حيث الظل الظليل والرياض المزهرة والورود اليانعة ، وكنا يختلفان الى بعض الأديرة فى الموصل وأطراف حلب فعاشا أحيانا عيشة السكارى والمجان، فى هذه البيع وهذه الأديرة ، ووصفا ما كان من النصارى لعصرهما ، وقد كانا يصفان كل ما يصادفان ويهتمان بأشياء نادرة ، فيرسمان ما لم يرسم غيرهما فى لغة بسيطة رشيقة ساحرة ، وفى اسلوب عذب مستحب(٣٢) .

ونبدأ حديثنا عن أبى بكر محمد الخالدى الأخ الأكبر لأبى عثمان سعيد الخالدى ، وله شعر كثير فى وصف الطبيعة ، وكان رساما بارعا يصطاد الصور الجميلة فى وصف الطبيعة ، فهو وصاف دقيق لا يقل فى احسانه وتصويره عن زملائه أرباب هذه المدرسة الشامية ، التى نزعت الى تجسيد الأشياء والايغال فى الصورة ، والذهاب مع الخيال الى أبعد أغواره ، يكاد يسير على مذهب ابن الرومى ، ولعله يزيد عليه فى رقة اللفظ وفى موسيقا التعبير . وحين وصف أبو بكر محمد الخالدى قصر « سيف الدولة » وصفه بريشة فنان حاذق ، ومن خلال هذا الوصف لقصر سيف الدولة ، نراه يصور الحدائق المحيطة بالقصر ، ويصور الروضة الفيحاء التى تلف هذا القصر حيث يقول(٣٣) :

---

(٣٢) انظر : قدماء ومعاصرون للدكتور سامى الدهان ص ٣٦ ط. دار المعارف القاهرة ١٩٦١ .

(٣٣) الوافى بالوفيات لصلاح الدين الصفدى ١٤٩/٥ (الطبعة الثانية) ط دار صادر بيروت سنة ١٩٧٠ ، فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبى تحقيق د. احسان عباس ٥٢/٤ ط دار الثقافة بيروت ١٩٧٤ .

وصبغ شقائق النعمان يحكى ... يواقيتا نظمن على اقتران
وأحيانا نشبهها خدودا ... كستها الراح ثوبا أرجوانى
شقائق مثل أقداح ملاء ... وخشخاش كفارغة القنانى
ولما غازلتها الريح خلنا ... بها جيشى وغى يتقابلان
تخال به ثغورا باسمات ... اذا ما افتر نور الأقحوان
وآذريونه قد شبهوه ... بتشبيه صحيح فى المعانى
بكأس من عقيق فيه مسك ... وهذا الحق أيد بالبيان

- انها لوحة فنية رائعة ، تلك التى أبدعها يراع أبى بكر محمد الخالدى ، وأجاد فيها وصورها بعبقرية فائقة ، فهذه الألواح التى خلفها الخالدى الأكبر تصف ظواهر العمران ، كما تصف الحدائق الغناء ، وأن الحدائق ناضرات تستدعى الصبوح والغبوق ، فالخشخاش على أوراقه الخضر اللدان ، كأنها سوالف غانيات فاتنات ، وشقائق النعمان تحكى اليواقيت المنظومة أو الخدود حين تكسوها الراح ثوبا أرجوانيا ، والآذريون مثل كأس من عقيق فيه مسك ، ولاشك أن الشاعر قد أبدع فى وصفه هذا ، فقد اعتمد الشاعر فى ابرازه وتصويره على الصور الجزئية ، من استعارات بارعة وتشبيهات فنية ساحرة ، ويتضح فيها براعة الشاعر وشاعريته الخصبة وساعده ذلك على ابراز الصورة وتشخيصها أمام أعيننا بمهارة فائقة وجودة فى الوصف لا نظير لها .

ومن أجمل شعره ما جاء فى وصف النجوم والسماء والطبيعة الفتانة ، والغيم الأبيض الذى ظهر فى السماء ، فى لوحة فنية رائعة حيث يقول :

أرعى النجوم كأنما فى أفقها ... زهر الأقاحى فى رياض بانسج
والمشترى وسط السماء تخاله ... وسناه مثل الزئبق المترجرج
مسمار تبر أصفر ركبته ... فى فص خاتم فضة فيروزج
وتمايل الجوزاء يحكى فى الدجى ... ميلان شارب قهوة لم تمزج

وتنقبت بخفيف غـــيم أبيض ‏ ‏ هى فيــه بين تخفـر وتبرج
كتنفس الحسناء فى المـرآة اذ ‏ ‏ كملت مجاســنها ولم تتزوج

ونحن نرى فى هذه الصورة من صـــور الطبيعة جمالاً وابتكـــارا وابداعا ، وهذا هو الشعر فى رأينا : لمحات عبقـــرية وصور بديعـــة مبتكرة يحدوها الالهام الى ساح الخلود .

فهو يرقب النجوم وهى فى أفقهـــا كأنها زهر الأقـــاحى فى رياض بنفسج ، وهذا المشترى الذى يلوح وسط السماء كالزئبق المترجرج ، كما ان تمايل الجوزاء يحكى ميلان شارب كأس من الخمر لم تمـــزج ، وأن الغيم حين بدا فى السماء كان يشبه فى خيال الشاعر هذه القطعـــة التى كونتها حسرة الحسناء وقد كملت محاســـنها ولم تتزوج ، وقـــد أرسلت فيها نفسها الجميل وأساها العميق .

ونحس فى هذه الصورة ــ خاصة فى البيتين الأخيرين ــ بالحركـــة وبراعة التصوير وكأننا نشاهد هذا المنظر مجسما شاخصا ماثلا للعيون، ونجد فيه براعة الشاعر ، ونجد فيه الاحاطة بصفات الموصوف وابتكار الصور ، وهذا هو الوصف الجيد الذى عناه أبو هلال العســـكرى فى قوله : « ان أجـــود الوصـــف ما يســـتوعب أكثر معـــانى الموصـــوف ، حتى كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصب عينيك »(٣٥) .

---

(٣٤) يتيمـــة الدهر فى محاســـن أهل العصر للثعـــالبى ١٩٠/٢ تحقيق الأســـتاذ محمد محيى الدين عبد الحميد ط دار الفكر للطبـــاعة والنشر بيروت .

(٣٥) كتـــاب الصـــناعتين لأبى هلال العســـكرى ص ١٢٩ تحقيق الأستاذين على البجاوى ومحمد ابى الفضل ابراهيم ط الحلبى القاهرة .

وفى مقطوعة أخرى يبدع الشاعر فى وصف الليل والصبح ويمزج ذلك بشرب الخمر حيث يقول(٣٦) :

فلأشكرن « لدير قنا » ليلة ... أشرقت ظلمتها ببدر مشرق
بتنا نوفى اللهو فيها حقه ... بالراح والوتر الفصيح المنطق
والجو يسحب من عليل هوائه ... ثوبا يرش بطله المترقرق
حتى رأينا الليل قوس ظهره ... هرما وأثر فيه شيب المفرق
وكأن ضوء الفجر فى باقى الدجى ... سيف حلاه من اللجين المحرق
يا طيبها من ليلة لو لم تكن ... قصرت فريع تجمع بتفرق

انه السحر الحلال ، وانه وصف الطبيعة البارع ، ذلك الذى جاد به أبو بكر محمد الخالدى فى وصف البدر والليل والصبح ، كل ذلك فى عكوفه على الخمر فى هذا المكان المسمى (ديرقنا) حيث أشرق البدر فى السماء ، وبات هو وصحبه وقد وفوا اللهو والمجون حقهما وذلك بشرب الخمر ، وعلى رنين الموسيقا التى تسكر المهج والأفئدة ، وما أجمل الجو حيث الهواء العليل ، وقد سحب هذا الهواء العليل ثوبا يرش بالندى المترقرق ، وتخيل الشاعر أن الليل قد قوس ظهره من شده الهرم ، وأن الشيب حل بمفرقه ، وأن الفجر كالسيف من اللجين، ثم يختم الشاعر أبياته فيقول :

يا ليلة ما أطيبها قد قصرت وافترق الخلان بعد تجمع وتآلف على الود والصفاء .

وكانت هذه اللوحة الفنية الرائعة التى حفل شعر الخالدى الأكبر بألوان ممتعة من التشبيهات والاستعارات من مثل قوله (والجو يسحب من عليل هوائه ثوبا) ومثل قوله (الليل قوس ظهره) وقوله (وأثر فيه

---

(٣٦) يتيمة الدهر للثعالبى ١٩٣/٢ .

شيب المفرق) ، وقوله (كأن ضوء الفجر سيف من اللجين) ، والتى لعب فيها خياله الشعرى الخصب مع جودة فى السبك وانطلاق فى القدرة وجمال فى التصوير •

★ ★ ★

أما الشاعر الخالدى الأصغر وهو « أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدى » فلا يختلف عنه فى المعانى والصور ، وطريقته فى التعبير هى طريقة أخيه نفسها لا تختلف ولا تتميز ، ومن العسير أن يصدر ذلك عن شخصين مختلفين ، ولو كانا أخوين لأب واحد وأم واحدة ، ولكنهما كانت معجزة هذين الأخوين الشاعرين ، فقد انطلقا معا فى دروب الحياة ، لم ينفصل أحدهما عن الآخر الا بالموت ، فسلكا سبيلها الى العواصم والحواضر ، وطرقا الأديرة ، واستسلما معا للمجون واللهو والعبث(٣٧) •

وشاعرنا كان يتميز بأنه نافذ البصيرة صافى الذهن رقيق الاحساس، وهذه كلها تميز الشاعر الوصاف عن غيره خاصة فى مجال وصف الطبيعة اذ أن مجال الطبيعة تقتضى أن يكون الوصف حاكيا صفة الطبيعة من لون وصوت وحركة ، حتى اذا قرأه الانسان أو سمعه تمثل له الموصوف كأنه يراه بعينه ويسمعه بأذنه ويحس فى نفسه بجماله أو جلاله(٣٨) •

ونرى أبا عثمان سعيد الخالدى يمزج وصف الطبيعة بوصف مجالس الشرب ، فكان متعة الشراب لا تتحقق له الا اذ جلس فى أحضان الطبيعة الساحرة الفتانة حيث الظل الظليل والنسيم العليل والرياض المزهرة والورود اليانعة •

---

(٣٧) انظر : قدماء ومعاصرون ص ٤١ وما بعدها •

(٣٨) انظر : الأسلوب للأستاذ أحمد الشايب ص ٧٠ وما بعدها ط الاعتماد سنة ١٩٤٥ •

دخل أبو عثمان « بيرسعيد » بالموصل ووصف الأرض موشاة بالديباج والأغصان تزينها الزهور،والحمائم تغنى الألحان كأنها أصوات على رمل وهزج ، ثم راح يصف النسيم ومجلس الخمر فقال(٣٩) :

يا حسن « ديرسعيد» اذ حللت به ... والأرض والروض فى وشى وديباج
فما ترى غصنا الا وزهرته ... تجلوه فى حبة منها ودواج
والحمائم الحان تذكرنا ... أحبابنا بين أرمال وأهزاج
والنسيم على الغدران رفرفة ... يزورها فتلقاه بأمواج
والخمر تجلى على خطابها فترى ... عرائس الكرم قد زفت لأزواج
وكلنا من أكاليل البهار على ... رؤسنا كأنو شروان فى التاج
ونحن فى فلك اللهو المحيط بنا ... كأننا فى سماء ذات أبراج

الشاعر هنا له قره فائقة على التصوير وتجسيم الموصوف حتى يبرز للعيان فى صورة محسوسة ملموسة ، فهو قادر على بعث الحركة والحياة فى الموصوف ، ومن ثم يستطيع أن يجعله ماثلا للقارىء مجسما كأن الموصوف أمامه ، يتحرك بكل ما فيه من مقومات الحياة وأدق الصفات وأخص السمات .

فأحاط بكل ما ترى العين وتسمع الأذن وتشتهى النفس ، ووصف الحالة النفسية للشرب حينذاك فبلغ بدقته ورقته مبلغا لطيفا يسيل عذوبة وجمالا .

وتظهر براعة الشاعر ومقدرته البيانية أن هذه القصيدة احتوت على كثير من الصور الجزئية الخلابة ، وهى فى النهاية تكون صورة كلية لها جمالها ووزنها الابداعى ، واستطاع الشاعر علاوة على هذا أن يجمع فى هذه القصيدة عناصرها الفنية من ألفاظ وعبارات دالة وتصوير رائع

---

(٣٩) يتيمة الدهر ٢/٢٠٥ .

وصدق فى الأداء ، وكل هـذه ساعدت عـلى ابراز الصورة فى هيئـة محسوسة مجسمة لتستقر فى الذهن والوجدان •

وفى مقطوعة أخرى لأبى عثمان الخالدى يصف من مظاهر الطبيعة الجو والليل والصبح حيث يقول(٤٠)

أما ترى الطل كيف يلمـع فى ... عيون نور تدعو الى الطرب ؟
فى كل عين للطـل لـؤلؤة ... كدمعـة فى جفـون منتحب
والصبح قد جردت صـوارمه ... والليل قد هم منه بالهـرب
والجـو فى حلـة ممسـكة ... قد كتبتهـا البـروق بالذهب

ما أبدع هذا الشعر وما أطيبه وأجمله ، فقد كان الشاعر موفقـا كل التوفيق فى رسم هذه الصورة ، وحشد لها العبارة الدالة والتصوير الدقيق والألفاظ المعبرة •

والشاعر فى هذه الأبيات يطلب من صاحبه أن يرى النـدى كيف يلمع فى عيون الزهر ، ويستخدم الاستفهام التقديرى وكان السـامع يجيب من فوره أن تعم ولا يستطيع انكاره ، وهذا الندى له عيـون كاللآلىء ويشـبهها بالدموع فى جفـون منتحب ، ثم يعقد معركـة بين الصبح والليل على سبيل الاستعارة ، فالصبح قد جرد حسامه الصارم، والليل يهرب منه ، وهذه الاستعارة قد أوضحت المشـبه وجعلته ماثلا للعيون وأن يبرزها فى صورة محسوسة ، لتستقر فى الذهن والوجدان •

كما أن الجو يبدو فى حلة معطرة ، ويتخيـل أن هـذه الحلة كتبتها البروق بالذهب • وهذا البيت يذكـرنا بقول السرى الرفـاء فى وصف الجو المعطر :

---

(٤٠) يتيمة الدهر للثعالبى ١٩٩/٢ (والطل : الندى ، ممسكة : مطيبة بالمسك) •

أما ترى الجو يجلى فى ممسكة والأرض تختال فى أبرادها القشب(٤١)

ويقول أبو عثمان الخالدى فى ليلة ليلاء(٤٢) :

وليلة ليلاء فى اللون كلون المفرق
كأنما نجومها فى مغرب ومشرق
دراهم منثورة على بساط أزرق

انه للخيال اللعوب فهو يتصور أن الليلة الطويلة فى اللون كلون المفرق ، وكأن النجوم فيها تسرى فى المغرب والمشرق تشبه دراهم منثورة على بساط أزرق اللون .

وهكذا تغنى بالطبيعة كل من أبى بكر الخالدى وأبى عثمان الخالدى وصوراها فى مختلف مظاهرها وأبدعا فى كل هذا ، ورسما لنا صورا تجمع بين صدق الأداء وبراعة الوصف ، واظهار الدقائق والتفاصيل وحرارة الاحساس وجودة التصوير .

ثالثا : الطبيعة فى شعر كشاجم(٤٣) :

كان الشاعر « كشاجم » يستمتع بجمال حلب أكثر مما استمتع بغيرها ، فقد وقع على صديق أليف ، كان يفهم سحر الروض ويقرأ

---

(٤١) يتيمة الدهر للثعالبى ١٦٧/٢ ، ديوان السرى الرفاء ص ٣٩ ط القدسى ١٣٥٥هـ .

(٤٢) يتيمة الدهر للثعالبى ٢٠٤/٢ .

(٤٣) كشاجم : هو أبو الفتح محمود بن محمد الحسين بن شاهك المعروف بلقبه « كشاجم » ولد بالرملة فى فلسطين سنة ٢٩٠هـ ، ويبارح الرملة فى سن مبكرة الى الموصل ، وانتهى به الأمر عند سيف الدولة حيث عمل طباخا . وتوفى كشاجم سنة ٣٥٠هـ (عصر الدول والامارات فى مصر والشام ص ٦٧٣ وما بعدها) .

سر الجمال ، وكان يسكر للزهر والعطر والماء ويغنى بالنهر والبساتين ذلك هو « الصنوبرى » فتآلفا على عشق الجمال واصطياد الألوان والأنوار والظلال ، وتآخيا على اليسر والعسر ، واكبا معا اللذائذ فى الصحو والسكر ، وشغلا بالبساتين عن الناس ، وذكر « كشاجم » فى ديوانه أن صديقه « الصنوبرى » كان يملك البساتين فى حلب ، وقد شيد فيها دارا وقصرا للخلوة ، وجمع فيها الغرس والحرث والبذر ، فغصت بالنارنج والريحان والورود ، فقد كان صديقه « الصنوبرى » موسعا عليه فى الرزق ، وكان يعيش على أيسر حال منعما موفور الخير(٤٤) .

ومن هنا فقد كان الشاعر يستمتع بالجمال على ألوانه ويرتع فيه مزهوا ، وقد عاد ذلك بالابداع فى شعر الطبيعة حيث الطبيعة الساحرة الفتانة التى تنتشر فيها البساتين والورود والرياحين ، ويعود بالأوصاف الجميلة التى تؤكد حبه الطبيعة وجمالها ، فهو يرى أن عينه لم تقع فى حلب الا على رياض فيحاء يضحك فيها نبات الشقيق ، ويدنو بعضه من بعض كما يدنو الحبيب من حبيبه ، والنرجس يغض الطرف حينا ويحدق بالبصر أحيانا ، فالشاعر يستمتع بالألوان والظلال والأنوار وكأنه فى جنة الخلد ، ومن ثم فهو يسكر للزهر والعطر والماء ، وينتشى بالماء الذى ينساب فى نهر « قويق » بحلب ، وما ينتشر حوله من رياض واسعة غناء يضحك فيها نبات الشقيق والنرجس والسوسن وغيرها من الأزهار اليانعة الفاتنة . يقول كشاجم(٤٥) :

وما أمتعت جارها بلدة كما أمتعت حلب جارها
هى الخلد تجمع ما تشتهى فزرها فطوبى لمن زارها

---

(٤٢) انظر : قدماء ومعاصرون للدكتور / سامى الدهان ص ٢٢ وما بعدها .

(٤٥) ديوان كشاجم ص ١٥٨ ط بيروت لبنان .

ولله فيهـــا شهور الربيـــع حين تعطـــر أســـحارها
اذا ما استمد « قويق » السما ء بهـــا فأمدته أمطـــارها
وقبـــل ينظـــم أنجـــادها بفيض الميـــاه وأغوارهـــا
وأرضـــع جنـــاتها درة فعمـــم بالنـــور أشـــجارها

فى هذه اللوحة الفنية الرائعة يصف الشاعر نهر « قويق » ، ولقد صدق الشاعر فى وصفه ، فقد كانت « حلب » تنتعش بالأمطار فتسيل فى نهر « قويق » ويعمها النهر بالخير آنذاك ، ويبسط نعماءه على بساتينها وقد كانت واسعة زاهرة ، وعهد الحلبيين بالبساتين غير بعيد ، يعرفون لها جمالها وفضلها وزهرها وأشجارها قبل أن ينقطع مجرى النهر عنها ، وقد حجب الأتراك ماءه منذ سنين وأسالوها فى بقاعهم ، فمات النهر وذبل الزهر ويبس الشجر . وفى الربيع كان شاعرنا يستمتع بالجمال الماثل أمامه ، ويرتع فيه مختالا يجنى لذته ولهوه ، ويعود بالأوصاف الجميلة ، فحلب جنة الدنيا ، ويطلب من سامعه أن يزورها ، فهناك الجمال الربانى حيث تعطر بالورد ، والزهر على أرجائها كسراج يتوقد ، كما أن الشاعر يشير الى أن هذه الجنات قد استمدت الدرر الرائعة من النور والزهر والرياحين وما الى ذلك .

ولقد احتوت هذه الصورة على عناصرها الفنية من ألفاظ وعبارات دالة وتصوير رائع وصدق فى الأداء والمشاعر والأحاسيس ، واستطاع الشاعر أن يجسم لنا هذه الصورة وأن يبرزها فى صورة محسوسة .

ومن أبدع أوصاف كشاجم للسحابة قوله(٤٦) :

غـــادية والشمس فى طرادها مكنـــوها للسرى فـــؤادها
مريضة تشـــكو الى عـــوادها بياضها قد ضاع فى ســـوادها

---

(٤٦) ديوان كشاجم ص ١٥٩ .

تكـــاد لولا الماء فى مزادهـــا تحرقها البـــروق بانقـــادها
لهـــا على الرياض فى بعـــادها تعطف الأم عـــلى أولادهـــا
كأنهـــا للحلى فى أجيـــادها وللذى ينثـــر من أبرادهـــا
على رباهـــا وعـــلى وهادها مغـــيرة تفرط فى كيـــادها
لغـــائظ الناظر من حســـادها فراوح الخمـــرة أو فغـــادها

لاشك أن كشـــاجم كان له من الصـــور الطبيعية ما يتتبع فيـــه الموصوف ، ويجنيه تجلية انسانية ، ويصـــوره ذا عواطف وأحاســـيس وذا جمال يسر الحواس كمـــا يسر القلب ومن هـــذا الوصف وصـــفه للسحابة التى تغدو وتروح ، ولا جرم أن الشاعر قد جهـــد فى تأليف هذه الصورة فأبدع وأجاد ، وان استعان فيها بمعانى القدماء والمحدثين، وهو فى هذا الوصف يتنقل بين جوين : جـــو السحابة المريض وجـــو الروض المملوء نشاطا ، بل غيرة وانتقادا وتباهيا بما فى جعبته من ألوان وزهور .وهذاالنوع من تناقض العرض قد تفنن فيه المحدثون لهـــذا العصر وما قبله .

على أن الوصف قد يسوده جو واحد ، وهو جو المودة بين السماء والأرض ، فيصور السحابة مقبلة ، والرعد يحدو الودق بخطبة رنانة مرتجلة ، والريح توقرها فلا يســـتعجلها بأكثر من جذب الذيل ، والزهر يصغى اليها ، كأنما يسأل عنها وعن حالها ، بل كاد أن يهم باستقبالها، فتدنو من الأرض فى دلال وتجودها .

والشاعر رغم انه استمد معانيه من القدماء الا أنه عرض هـــذا القديم فى ثوب رائع لا يقل بهاء عما سبقه(٤٧) .

---

(٤٧) انظر : شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص ٢١٥ .

ويصف كشاجم من مناظر الطبيعة روضة يانعة وقد أسعدها الغيث صباحا ومساء حيث يقول(٤٨) :

وروض عن صنيع الغيث راض ... كما رضي الصديق عن الصديق
اذا ما القطر أسعده صبوحا ... أتم له الطبيعة فى الغبوق
يعير الريح بالنفحات ريحا ... كأن ثراه من مسك فتيق
كأن الطل منتشرا عليه ... بقايا الدمع فى الخد المشوق
كأن غصونه سقيت رحيقا ... فماست ميس شراب الرحيق
كأن شقائق النعمان فيه ... مخصرة شقائق من عقيق
يذكرنى بنفسجه بقايا ... صنيع اللطم فى الوجه الرقيق

ان الشاعر فى هذه الأبيات التى ذكرناها يقبل بمنتهى الشغف على هذه الروضة اليانعة وقد جادها الغيث صباحا ومساء ، كأنه الصبوح والغبوق ، ثم يعمد الى وصف الطل والغصون وشقائق النعمان فيشبه الطل المنثور على الروض ببقايا الدمع فى خد الحبيب المشوق ، ويشبه الغصون وقد أرتوت بالغيث ومال بها النسيم ، بثمل يتمايل يمنة ويسرة ، كما يشبه شقائق النعمان بشقائق العقيق والبنفسج بآثار اللطم فى خدود الحسان .

ونلاحظ فى هذه الأبيات أن الشاعر قد جعل كل اهتمامه فى الصنعة والتشبيهات بحيث خرج عن جو الرياض الجميل ، وما ينبغى له من تصوير رائع ، كما فعل صاحبه « الصنوبرى » حتى أنه بعد بنا عن الشذا والعبير والصبا والرحيق الى مجرد ذكر الطل والغصون والشقائق والبنفسج ذكرا سريعا ، فشغل نفسه بالتشبيهات عن جوهر الموضوع(٤٩) .

---

(٤٨) ديوان كشاجم ص ١٠٥ .
(٤٩) انظر : فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين ص ٣٤١ .

ومهما يكن من شيء فان هذه الهنات لا تغض من شأن هذه القصيدة ، فان فيها جمالا وتصويرا رائعا ، فهذه الروضة قد جادها الغيث فنمت وربت وازدهرت وأينعت ، والقارىء لهذه الصورة يحس بأجادة الشاعر ومقدرته البيانية ومهارته الفنية فى تصوير هذه الطبيعة الغناء الساحرة الفتانة .

ويعد الصنوبرى أول من تغنى بالثلج وبدائعه ، وان قل فى هذا الأمر ولم يرد له فى هذا الباب سوى أشعار قليلة ، فان حظ «كشاجم» من الثلجيات أعظم وفتنته بها أبهر من كل فتنة والخمر تأتى فيها مكملا لألوان البهجة فى جو المسرة الطبيعية فيقول(٥٠) :

ثلج وشمس وثوب غادية ... فالأرض من كل جانب غرة
باتت وقيعانها زبرجدة ... وأصبحت قد تحولت الى درة

فهو يجمع بين الثلج والشمس وثوب الغادية ، فالأرض تبدو فى منظر بهيج ، وقد أصبحت وقيعانها كالزبرجد ، وهكذا تحولت الأرض الى درة .

ان الشاعر بهذا التصوير الرائع قد بثه جمالا يشبه السحر الذى تتحول به ألوان الأشياء الى نقائضها من أخضر الى أبيض ، بل هو أعظم من السحر لأنه يحيل طبائع الأشياء .

فكشاجم عاش فى بيئات لها من المغريات الطبيعية حظ موفور ، وصادق شاعر الطبيعة المبدع الصنوبرى ، واتبع طريقة الأدب الواقعى التى تتغنى بوصف الحياة المحسوسة ، و لاترى بعين الغير ، وتهيأ له حظ موفور من عشق الطبيعة ، ففتن بها وكان فنه فن عصره الذى يعنى بالبديع ، لكنه قد تخفف منه تخفيف الصنوبرى وان لم يبلغ أسلوبه من السلاسة مبلغ أسلوب صاحبه ، لأن عاطفته أقل من عاطفة صاحبه .

---

(٥٠) ديوان كشاجم ص ٧٣ .

فهو شاعر للطبيعة تحس فيه روح الصنوبري وتحليقـه ، وترى أثر الاتباع فى فنه يضعف أمام الانفعال وصادق الشعور(٥١) .

رابعا : الطبيعة فى شعر الوأواء الدمشقى(٥٢) :

عرف عن الوأواء الدمشقى أنه كثير الوصف لمناظر الطبيعة ، وانه كان يكثر من الزخارف اللفظية المطلقة من تشبيهات واستعارات ، ومما يدل على ذلك قوله(٥٣) :

قالت وقد فتكت فينـا لواحظهـا ... كم ذا أما لقتيل الحب من قود ؟
وأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت ... وردا وعضت على العناب بالبرد

فقد جمع الشاعر فى هذا البيت خمسة من التشبيهات الرائعة فى آن واحـد ، الدمع باللؤلؤ ، والعين بالنرجس ، والخـد بالورد ، والأنامل باللعناب لما فيهن من خضاب والثغر بالبرد .

كما أن الاستعارات عند الوأواء الدمشـقى كثيرة لكثرة الوصف خاصة وصف الطبيعة ، فحينما يكثر شـعر الطبيعة تتزاحم الاستعارات وتتدفق من أقلام الشعراء لأن الطبيعة هى المجال البكر والنبع الصـافى والمعين المتدفق الذى يستمد منه الشاعر الجمال الحسى والمعنوى،وليست

---

(٥١) انظر : شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص ٢١٧ وما بعدها،

(٥٢) الوأواء الدمشقى : هو محمد بن أحمد الغسـانى المشـهور بالوأواء الدمشقى من أهل دمشق ولد بها ونشأ ولقب بالوأواء لأنه كان مناديا بسـوق الفاكهة ، وكان شـعره يدور حول الغزل والخمر ووصف الطبيعة . وكان على صلة بسيف الدولة الحمدانى بحلب . وتوفى الوأواء سنة ٣٧٠هـ تقريبا (عصر الدول والامارات فى مصر والشام ص ٧٤٧)

(٥٣) يتيمة الدهر للثعالبى ١/٢٧٥ ، ديوان الوأواء الدمشقى ص ٤٧ ط المجمع العلمى بدمشق .

الاستعارات الا ضروبا من القصد الى الجمال والبراعة التعبيرية، ومن هنا كانت استعارات الطبيعة أجمل حسنا وأطيب مذهبا وأبرع قصدا وأرق طبعا من غيرها من الاستعارات التى تجرى فى أغراض أخرى من فنون الشعر(٥٤) .

والوأواء الدمشقي فى مقدمة الشعراء الذين وصفوا السماء ونجومها وبياض الفجر مع سواد الليل حيث يقول فى براعة تامة وجمال مستفيض(٥٥) :

وليل كليل الشاكلات لبسته ... مشارقه لا تهتدى للمغارب
كأن اخضرار الجو صرح زبرجد ... تناثر فيه الدر من جيد كاعب
كأن نجوم الليل سرب رواتع ... لها البدر راع فى رياض السحائب
كأن بياض الفجر فى ظلمة الدجى ... بياض ولاء لاح فى قلب ناصب

ونحس فى هذه الصورة بالحركة وبراعة التصوير وكأننا نشاهد هذا المنظر مجسما شاخصا أمامنا ماثلا للعيون ، ونجد فيه الاحاطة بصفات الموصوف وابتكار الصور واصابة التشبيه ، فقد أغرم الوأواء الدمشقى بالتشبيهات ، وهو بارع فى تصويره وما أجمل تصويره لليل وهو أخضر اللون ولذا فهو يشبهه بصرح من زبرجد وقد تناثرت فيه النجوم التى كأنها در مبعثر عن عقد انفرط من جيد حسناء ، ثم يعود فيشبه النجوم بسرب يرتع والبدر راعيها والسحاب مرعاها . ثم يشبه انبثاق الفجر من بين الظلمة ببياض الولاء الذى يلوح فى قلب انسان ساخط ، وقد اهتم دارسو البلاغة بالبيت الأخير من هذه الأبيات ، لأن المشبه به عقلى معنوى غير محسوس ، والواقع أن المسألة ليست مسألة

(٥٤) انظر : فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين ص ٤٩٥ .
(٥٥) ديوان الوأواء الدمشقى ص ٣ ط المجمع العلمى العربى بدمشق

عقلى أو حسى ، وانما هى مسألة الخيال الخصب والتصور الحسن والسياق السهل ، ومن هنا فان التشبيهات فى الأبيات الأولى لا تكاد تقل جمالا عن هذا التشبيه الأخير(٥٦) .

وأحيانا نرى الوأواء الدمشقى يمزج بين وصف الطبيعة وشرب الخمر ، وكأنه لا يحلو له شرب الخمر الا فى احضان الطبيعة حيث الظل الظليل والهواء العليل ، والورود والرياحين وفى ظلال دوحة عليها الطيور والبلابل تغنيان بأعذب الألحان حيث يقول(٥٧) :

ذرى شجر للطير فيه تشاجر ... كأن أحمرار الزهر فيه جواهر
كأن القمارى والبلابل بيننا ... قيان وأوراق الغصون ستائر
شربنا على ذاك الترنم قهوة ... كأن على حافاتها الدر دائر

والشاعر كما قلنا مغرم بالطبيعة يجد فيها لذته ومتعته ، فهو يأوى اليها ويستظل بظلالها الوارفة وجمالها الساحر الفتان ، ويجد فى أفيائها النعيم كله والحياة كلها ، وهو يضيف الى هذه المتعة متعة أخرى هى احتساؤه للخمر فى ربوع هذه الطبيعة الخلابة ، وكثيرا ما نرى الشاعر يصور الرياض وسحرها وجمالها واقباله على شرب الخمر بين دوحاتها ووسط خمائلها وتحت أغصانها ، ويمزج بين وصف الرياض المزهرة ووصف مجالس الخمر .

فهو هنا يصف مجلس الشراب فى ظلال دوحة فيشبه أزهارها الحمراء بالجواهر والاطيار بالمغنيات من القيان ، والاغصان بالستائر التى كانت القيان يحتجبن وراءها ، وأخيرا يشبه حبب الخمر بالدرر ،

---

(٥٦) انظر : فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين ص ٥٠١ وما بعدها
(٥٧) ديوان الوأواء الدمشقى ص ٦٨ وما بعدها .

وما أبدع هذا الوصف وما أحلاه ، وكل هذا ساعد على ابراز الصورة فى وجدان القارىء والسامع لتستقر فى الذهن كل الاستقرار .

ومن هذا القبيل قوله يصف روضة ناضرة عامرة بالورد والرياحين والنرجس وشقائق النعمان ، والنسيم العليل يميل أغصانها ، والشاعر وصحبه نشاوى من الخمر المعتقة(٥٨) :

زمان الرياض زمان أنيق ... وعيش الخلاعة عيش رقيق
وقد جمع الوقت حاليهما ... فمن ذا يفيق ومن يستفيق
فيا من هو الفوز لى والمنى ... ومن هو بالود منى حقيق
أدر لحظ عينيك وامرجه فى ... مروج الرياض تجدها تشوق
ترى مزدوج الحسن فى مفرد ... جليل المحاسن شيه دقيق
اذا ضاحك الزهر زهر الوجوه فكيف الخلاص وأين الطريق؟
بهار بهير به غيرة ... على نرجس وشقيق شقيق
فذا عاشق وجل خائف ... وذا خجل وكذاك العشيق
مداهن يحملن طل الندى ... فهاتيك تبر وهذى عقيق
تنظم أوراقها درها ... وتنثر منها التى لاتطيق
يميل النسيم بأغصانها ... فبعض نشاوى وبعض مفيق
ويوم ستارته غيمه ... وقد طرزت رفرفيها البروق
تظل به الشمس محجوبة ... كأن اصطباحك فيه غبوق
على شجرات رافعات الذيول ... لماء الجداول منها شهيق

فى هذا الوصف أبدع الشاعر الوأواء الدمشقى حيث هام بالطبيعة الساحرة الفاتنة ورسمها بريشة فنان حاذق بحاسته الفنية وعاطفته الفائرة ، وتمثل كل ذلك فى هذه الصورة الشعرية التى أبدع فى رسمها ،

---

(٥٨) يتيمة الدهر للثعالبى ١/٢٧٧ وما بعدها .

فجاءت صورة معبرة عن انفعالاته وأحاسيسه ، بما اشتملت على الحركة والألوان والظلال والأنوار ، وكأنها صورة حية ماثلة أمامنا بكل دقائقها وتفاصيلها فى ابداع فنى منقطع النظير •

وهو فى هذه الأبيات يقول : ان زمان الرياض أنيق ، والعيش فى الخلاعة عيش رقيق ، وها نحن نعيش فى أجمل حال فمن ذا يفيق ومن يستفيق ، ويطلب من صاحبه وخدن وداده ، أن يجول بعينه فى الرياض ويجدها مشوقة له ، واذا ما نظر فى الرياض يجد الزهر يضاحك الوجوه الملاح ، وان البهار يغير غيرة شديدة على النرجس وشقائق النعمان ، وأن حاله كالعاشق الولهان ، والنرجس خجل والشقائق كالعشيق ، وأن النسيم يميل الأغصان ، وبعض منا نشاوى وبعض مفيق وأن هذا اليوم عليه ستارة من الغيوم وطرزت بالبروق ، وأن الشمس تظل محجوبة ، كأن الصباح كالمساء • ويمضى الشاعر بعد ذلك فيطلب الخمر من ساقيه حتى يلوح ضوء الفجر الجديد •

ولقد استطاع الشاعر أن يأتى بالألفاظ الدالة والعبارات الموحية من مثل قوله (أدر لحظ عينيك) وقوله (وأمرجه فى مروج الرياض) حيث جانس بين امرجه ومروج وقوله (ضاحك الزهر) فقد كان الشاعر يتخيل أن الزهر يضاحك الوجوه الملاح ، وقول الشاعر (بهار بهير به غيرة) حيث جعل البهار يغير على النرجس وشقائق النعمان ، وقوله (فذا عاشق) حيث صور أن البهار عاشق النرجس والشقائق ، وقوله (يميل النسيم بأغصانها) حيث جعل النسيم يميل بالأغصان ، وقوله (ستارته غيمه) حيث شبه الغيم بالستارة ، وقوله (شجرات رافعات الذيول) حيث تصور أن الشجر رافع الذيول ••• وكل هذه الألفاظ الدالة والعبارات الدقيقة والخيال الخصب الى جانب العاطفة الصادقة، فعبر عن مشاعره خير تعبير وصور ذلك فى شعره خير تصوير •

وهذه لقطة أخرى للوأواء الدمشقى جادت بها قريحته يصف منظر طلوع الفجر حيث يقول(٥٩) :

وغداف الظلام فى شرك الفجر شريكى فى قبضة الارتهان(٦٠)
وكان النجوم أحداق روم ركبت على محاجر السودان

والشاعر فى هذه اللقطة الذكية ، يصور غداف الظلام الحالك السواد ، بالواقع فى شرك الفجر وهو فى قبضة الارتهان ، كما يصور النجوم عند قرب طلوع الفجر بأحداق الروم الزرق ، ركبت على محاجر السودان ، وهذه لفتة طريفة حيث اجتمع السواد باللون الأزرق فأضفى على المعنى جمالا وابداعا ، واستطاع الشاعر آنذاك أن يجسم لنا هذه الصورة بحسه الفنى وعاطفته المتقدة ، وأن يبرزها فى صورة محسوسة لتستقر فى الأذهان والأسماع .

فالشاعر الوأواء الدمشقى شاعر وصاف له قدرة فائقة على التصوير وتجسيم الموصوف خاصة فى وصف الطبيعة ، وله قدرة عظيمة على بعث الحركة فى الموصوف والألوان والظلال ، ومن ثم تدل على ذكائه وعبقريته وشاعريته وحاسته الفنية المطبوعة .

خامسا : الطبيعة فى شعر السرى الرفاء(٦١) :

شاعرنا السرى الرفاء قد عاش فى بيئة مزهرة ناضرة بالموصل ،

---

(٥٩) يتيمة الدهر للثعالبى ٢٧٦/١ .

(٦٠) أصل الغداف : الغراب الأسود وهو لا يبيض أصلا .

(٦١) السرى الرفاء : هو أبو الحسن السرى بن أحمد الكندى الموصلى ، كان رفاء بالموصل وهذا أصل لقبه . وعاش بعد ذلك شاعرا فى بلاط سيف الدولة بحلب ، فلما مات سيف الدولة قدم الى بغداد ومدح الوزير المهلبى ، وتوفى السرى الرفاء فى سنة ٣٦٢هـ (تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٩٦/٢ ط دار المعارف) .

حيث نشأته الأولى وقبل أن يتصل بسيف الدولة الحمدانى بحلب،حيث الطبيعة الساحرة التى تنتشر فيها البساتين والورود والرياحين .

وكانت الطبيعة رافدا من روافد الالهام عند الشاعر ، واستطاع أن يمنحها الحياة ، وأن يجسم لنا الألوان والظلال والأنوار ، وأن ينقل الينا صورا رائعة من جمال الطبيعة التى تأثر بها،وعاش متيما بسحرها وجمالها ، وفى ذلك المعنى يقول الدكتور سيد نوفل : « فالسرى الرفاء قد ورث التراث الحديث فى شعر الطبيعة ، وتهيأ له من البيئة وجمالها، والفتنة بالطبيعة والعيش بين الماء والزهر والطير ما تهيأ لسابقيه ، فصور الطبيعة كما صوروها ، وزاد هذا اللون الطريف من وصف الماء والصيد وشاركهم فى سلاسة الاسلوب ، والأخذ بالبديع فى غير تكلف ظاهر »(٦٢) .

ولا عجب أن تأثر السرى الرفاء بالطبيعة،وافتتن بجمالها وسحرها وأبدع فى تصويرها ونقل مناظرها الرائعة الجذابة ، وهكذا كان السرى الرفاء شاعرا مطبوعا جمع بين صدق الأداء وبراعة الوصف ، واظهار الدقائق والتفاصيل وحرارة الاحساس وجودة التصوير .

وحينما نقرأ شعر السرى الرفاء فى وصف الطبيعة نلاحظ أنه لا يكتفى بوصف الطبيعة ونقل مناظرها الساحرة الفاتنة ، بل نحس أنه يحبها ويعشقها ويهيم فيها ويلجأ اليها ، ويجد متعته بين أحضانها ، فلا يحلو له شىء الا فى ظلالها ، ولا يحس بالأنس الا فى رياضها ، ولا يروق له الا فى ورودها وأزاهيرها فهو يجد سعادته فى أفيائها،وهو يستمتع بكل ما فيها من جمال وسحر وانغام(٦٣) .

---

(٦٢) شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص ٢٢٥ .

(٦٣) انظر : بحث « الوصف فى شعر السرى الرفاء » للدكتورعلى محمد طلب ص ٢٨٦ بمجلة كلية البنات الاسلامية بأسيوط « العدد الثالث » ط الأمانة القاهرة ١٩٨٤ .

ونرى الشاعر يكثر من وصف الطبيعة حيث النسيم العليل والهواء البليل والخضرة والماء ، وينهل من الطبيعة وسحرها وجمالهـا ، ومن ذلك قوله(٦٤) :

غيوم تمسك أفق السـماء ... وبرق يكتبـه بالذهب
وخضراء ينثر فيهـا الصبا ... فريد ندى ماله من ثقب(٦٥)
فأنوارها مثل نظـم الحلى ... وأنهارها مثل بيض القضب
حللت بها مع ندامى سـلوا ... عن الجد واشتهروا باللعب
وأغناهم عن بديع السـما ... ع بدائع ما ضـمنته الكتب
وأحسن شيء ربيـع الحيا ... أضيف اليه ربيـع الأدب

فى هذه اللوحة الفنية نرى الشاعر يصف هذا المنظر الطبيعى الذى قضى فى رحابه وقتا طيبا مع أصدقائه فى نسمر ومداعبة وفكاهة وملح أدبية ، والطبيعة أمامه تأخذ بالألباب والعقول ، حيث الغيوم المشبعة بالماء ، والبرق الذى ينذر بنزول المطر ، والجو المعطر المطيب بالمسك، وحيث تحمل ريح الصبا مياه الأمطـار فتنشرها فوق الأشجار كأنهـا الدر ، الا أنها در غير مثقوب ، وحيث النور الذى يلوح بنظام عجيب ونظم بديع كنظم الحلى ، وحيث الأنهار التى تجرى فيها المياه الساطعة المتلألئة كأنها السـيوف اللامعة البراقة ، ونراه وصـحبه وقد أخذوا بجمال الطبيعة فراحوا يشنفون أسماعهم بسماع درر الشعر والنثـر، وما تحتويه من فكاهة وملح ونوادر ، فأغناهم ذلك عن الطرب والغناء، وأجمل شيء فى نظر الشاعر أن يجمع الانسان بين جمال الربيع المزهر الناضر ، وبين حلو الكلام وروائع الأدب(٦٦) .

---

(٦٤) ديوان السرى الرفاء ص ٤٠٠ ط القدسى القاهرة ١٣٥٥هـ.
(٦٥) الندى : ما سقط آخر الليل . لفريد : الجوهر النفيس والدر
(٦٦) انظر : الوصف فى شعر السرى الرفاء ص ٢٨٩ .

وننظر فى صورة أخرى من صور السرى الرفاء لندرك قدرته على التصور والابداع الفنى ، وهى صـــورة من مظـاهر الطبيعـة التى افتقدناها فى الأدب العربى قبل ذلك ، وهى منظر الثـلوج التى تغطى قنن الجبال والربى وتتناثر فوق أفنان الأشجار ، وقد أبدع الشاعر فى تصويرها فأعطانا صورة زاهية الألوان واضحة السمات عن الثلج وما أضفاه على الطبيعة من بهاء حيث يقول(٦٧) :

سكنت الى الرحيل وكيف أثوى ... بأرض لم تكن ملقى رحـال
ألم بربعها حـــذرا فألقى ... ملم الشيب فى لمم الجبـــال
تلألأت الربى لمـــا عـلاها ... كـأن على الـربى أثواب آل
كأن ذرى الغصـــون لبسن منه ... حلى الـكافور ربات الجمـال
تجول العين فيـه وهو فيهـــا ... كشهب الخيل رحن بلا جلال(٦٨)

فالشاعر يقول فى هذه الأبيات : لقد استقرت نفسى على الرحيل ، وأنى لى أن أقيـم بأرض لم تكن يوما بها رحـال ، لا بل لأن الابل لا تستطيع العيش فيها ، لأنها مكسوة دوما بالثلوج ، واننى أغشـاها حذرا مترددا ، فألقى قمم الجبال قد كساها الثلج ، وكأنها رؤوس رجال قد جالها المشـيب ، وقد لمعت الروابى لمـا علاها الثلج كأن السراب قد ألقى عليها ثيابه ، وكأن أعالى الغصون وقد علاها الثلج حسان قد لبسن حلى الكافور ، وحين تنظر العين الى الثلـج وهو فى الغصـون كأنه شهب الخيل قد تعرت من جلالها فهى بيضاء سريعة الحركة .

---

(٦٧) ديوان السرى الرفاء ص ٢٣٠ .

(٦٨) ثوى : أقام . اللمم : له بالكسر وهى الشعر يلم بالمنكب أى يقرب ، ألم بالمكان : نزل فيـه . الآل : السراب . الجلال : جمع جل بضم الجيم وفتحها ، وهو ما تلبسه الدابة ليقيها من البرد .

وحينما نقرأ هذه الأبيات نرى كيف كان الشاعر مفتونا بمنظر الثلج ، فهو يرى فيه جمالا لا يقل عن جمال الزهور فى الرياض ، كما يرى الغيوم والسحب فى الجو والنجوم المتلألئة فى السماء ، وهذا اللون من التصوير طريف رائع ، وهو وان ألم بالثلوج حذرا الا أنها استهوته فأبدع فى وصفها ، وراح يرتب لهذا المنظر الرائع من مناظر الطبيعة ، فيرسمه لنا بريشة فنان بارع ، واستطاع أن يجسم هذا المنظر الطبيعى ويبرزه للسامع والقارىء فى صورة محسوسة مجسمة • ونرى السرى الرفاء يوازن بين حياة البادية حيث تقيم الابل ، وبين هذه البلاد المغطاة بالثلج ، وينتزع أحيانا تشبيهه من مناظر الصحراء،فالربى وقد علاها الثلج ابست ثوبا من السراب ، والغصون المتحركة التى كساها الثلج خيول بيضاء قد تعرت من جلالها(٦٩) •

ونمضى مع شاعرنا السرى الرفاء وهو يصور مناظر الطبيعة الفتانة ، فنراه يرسم لوحة فنية للنرجس الذى أبدع الخلاق فيه بألوانه الزاهية التى تخطف اللب ويشد الأبصار ويستولى على العقول حيث يقول(٧٠) :

سفرت لنا الدنيا وكم ... ألقت محاسنها الخمارا
ورأيت نرجسها على ... لباتها حليا معارا
ان حل حل به السرو ... ر مخيما أو سار سارا
ما كان قبل كأنه ... مرض العيون لها شعارا
لكنه أذرى بها ... فمرض ذلا وانكسارا

ان الشاعر كثير ما يفتن بالنرجس ، فهو أبهى زهور الشام وأكثرها انتشارا فى الرياض والبساتين ، والشاعر فى هذه الأبيات ينظر الى

---

(٦٩) انظر : وصف الطبيعة للأستاذ السباعى بيومى وآخرين ص ٦٢ •

(٧٠) ديوان السرى الرفاء ص ٢٤٥ •

الطبيعة وقد سفرت فى فصل الربيع ، وكشفت عن محاسنها بعد أن ألقت خمارها ، فبدت كالحسناء الجميلة الفاتنة الباهرة الحسن المشرقة الطلعة ، ثم هو يرى النرجس وقد زين الطبيعة حوله ، وعم الكون بجماله الساحر ونضارته وحسنه ، واذا حل النرجس فى مكان حل معه السرور وانشراح النفوس والأفئدة ،ولاسيما وهو ينظر الى من يراه بعين حسناء تنظر على استحياء من فرط الخجل والحياء .

ولاشك فى أن التصوير الرائع والخيال الخصب اللعوب ، هو الذى صور لنا الطبيعة فى صورة حسناء تلقى خمارها وتكشف عن محاسنها، وهو الذى جعل النرجس حلية على لبانتها وصدرها ، وهو الذى صور النرجس فى صورة حسناء تغض الطرف حياء وخجلا ، وترنو بطرف خفى فى استحياء مثير جذاب(٧١) .

وهكذا كان السرى الرفاء شاعرا وصافا بارعا فى رسم صوره الفنية ، بريشة فنان حاذق ماهر ورسام مبدع ، حيث نقل الينا الطبيعة وجمالها وفتنتها فى صور مليئة بالأشكال والألوان الزاهية البراقة ، واستطاع أن يجسم لنا هذه الصور فى أذهاننا وأسماعنا،ومن ثم فقد نقل الينا خواطره ومشاعره وأحاسيسه من خلال الصدق الفنى والعاطفة الصادقة والصور الفنية المعبرة .

سادسا : الطبيعة فى شعر أبى الفرج الببغاء(٧٢) :

عنى أبو الفرج الببغاء بتصوير الطبيعة على نحو فيه تأنق وعناية

---

(٧١) انظر : الوصف فى شعر السرى الرفاء ص ٢٩٢ .

(٧٢) أبو الفرج الببغاء : هو عبد الواحد (وقيل عبد الملك) بن نصر بن محمد المخزومى من أهل نصيبين . لقب بالببغاء للثغة كانت فى لسانه ، وكان الببغاء من شعراء سيف الدولة ، وقدم بعد وفاته الى =

بالشكل ، لا يطالع فيه القارىء حبسا وانما يطالع براعة فى النظم ، أو بعبارة أدق تغلب براعة النظم ماعداها فى شعره •

وأبو الفرج الببغاء ممن نهض بهم شعر الطبيعة فى العصر الحمدانى ، مع تصوير للبيئة وما فيها من مظاهر الحضارة تصويرا دقيقا معبرا ، اذ اعتمد الشاعر على وصف الحياة الطبيعية كما يراها ، من غير زيف ولا خداع ولا تكلف ولا استكراه ، مما يدل على شاعريته وصدقه الفنى والشعورى •

وأبو الفرج الببغاء فقد دفعه اللقب الى العناية (بوصف الببغاء) ودارت بينه وبين أبى اسحق الصابى مراسلات نظمية فى صفة الببغاء وغيرها من الطيور ، واصطنعا فى أكثرها الاسلوب المزدوج الشائع فى شعر الشام لذلك العصر ، لكنه لم يبلغ من الابتذال ما بلغه عند غيرهما •

ومما قاله أبو الفرج الببغاء فى وصف (الببغاء) من جملة مراسلاته مع أبى اسحق الصابى، فى هذه الأرجوزة(٧٣) :

وصح أن الببغاء مقصده ... بكل ما كان قديما أورده
فلم يدع لقائل مقالا ... فيها ولا لخاطر مقالا
أهدى لها من كل نعت أحسنه ... وصاغ من حلى المعانى أزينه
أحال بالريش الأشيب الأخضر ... وبالحمرار طوقها والمنسر(٧٤)

=

الموصل وبغداد ، وكان شاعرا مجيدا وكاتبا مترسلا جيد المعانى • وقد أحسن القول فى المديح والغزل والتشبيه والأوصاف وغير ذلك • وتوفى الببغاء يوم ٢٧ من شعبان سنة ٣٩٨هـ (تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢/٩٨ ط دار المعارف القاهرة ١٩٧٤) •

(٧٣) يتيمة الدهر للثعالبى ١/٢٥٤ •

(٧٤) الأشيب : المختلط • الطوق : العنق • المنسر : من الطائر الجارح مثل المنقار لغير الجارح •

على اختلاط الروض بالشقيق ... واخضر المينـاء بالعقيق
تـزهى بدواج من الزمرد ... ومقلة كسبج فى عسجد(٧٥)
وحسن منقار أشـم قانى ... كأنمـا صيغ من المرجـان
صيرها انفرادها فى الحبس ... بنطقها من فصـحاء الأنس
تميزت فى الطير بالبيـان ... عن كل مخلوق سوى الانسان
تحكى الذى تسمعه بلا كذب ... من غير تغيير لجد أو لعب
غذاؤها أزكى طعام رغـدا ... لاتشرب الماء ولاتخشى الصدا
كأنما الحبـة فى منقـارها ... حبابة تطفو على عقارها(٧٦)
اقدامها ببأسها الشـديد ... أسكنها فى قفص من حديد
لو لم تكن لى لقبا لم اختصر ... لكن خشيت أن يقال منتصر

والشاعر هنا يحيط بالموصـوف وهو (الببغاء) احاطة شـاملة ، وكانت له قدرة فائقة على التصوير والتجسيم والتشخيص ، واستطاع أن ينقل الينا ما يصف بريشة فنـان حاذق مصور بارع ، تدل عـلى مقدرته فى مجال التصوير ، وتدل من جهة أخرى على نبوغه وشاعريته وابداعه الفنى .

وهو هنا يثنى على أبى اسحق الصابى ، فقد كانت (الببغاء) كل همه ، ولم يدع لقـائل أو ناظم ما يقـوله فيها ، فقد أهـدى لها من الصفات أحسنها ، وصاغ من المعانى أبينها ، وبين أن الريش المختـلط الزاهى الخضرة قد حوله الى العقيق الأخضر ، وأن الطوق الأحمر قد حوله الى شقائق النعمان ، ففى البيتان لف ونشر مشوش فقد شـبه الريش المختلط الأخضر بالعقيق الأخضر ، كما شـبه الطـوق والمنسر الأحمر بشقائق النعمان .

---

(٧٥) السبيج : خز ناعم أسود ، والدواج : طاف يلبس .
(٧٦) العقار : الخمر . والحباب : الفقاعات التى تطفو على الكاس .

ثم يقول الشاعر : ان من صفات الببغاء أن تزهى تعجب بذلك الرداء من الزمرد ، وهذه المقلة السوداء كالخرز الناعم الأسود،كما أن لها منقارا أشم قانى اللون ، كأنما صيغ من المرجان الأحمر ، فهو يشبه منقارها القانى بالمرجان الأحمر ، وقد صيرها الحبس الانفرادى بأن تكون ناطقة كبنى الانسان ، وقد تميزت عن عالم الطير بالبيان عن كل المخلوقات ماعدا الانسان ، وهى تحكى ما تسمع بلا كذب ولا بهتان من غير تغيير فى جد أو فى لعب ، وغذاؤها من أطيب الطعام فلا تقتات غير الأرز ، ولا تشرب الببغاء الماء ولا تشعر بالعطش ، ثم يشبه أبو الفرج الحبة فى منقار الببغاء بالفقاعة التى تطفو على كأس الشراب، وقد جنت على نفسها فبأسها الشديد جعلها تسكن فى قفص من حديد •

ويقول فى النهاية : لو لم تكن الببغاء لقبا لى لأفضت فى وصفها ولم أختصر قولى ولكن خشيت كلام الناس أن يقال انتصر لها لما كانت الببغاء لقبه •

ومن هنا فقد أضفى على الببغاء من الصفات اللسن والشجاعة والجمال •

والقارىء لهذه الصورة يحس باجادة الشاعر ومقدرته البيانية ومهارته الفنية ، ولقد استطاع الشاعر فى هذه الأبيات أن يحشد لهذه الصورة الكلية كثيرا من الصور الجزئية ، وذلك باستخدام الألفاظ الدالة والعبارات الدقيقة والخيال الخصب ، فعبر الشاعر عن كل هذا خير تعبير ، وصور ذلك فى شعره خير تصوير •

ولأبى الفرج الببغاء فى وصف بركة حيث يقول(٧٧) :

وقوراء كالفلك المستدير   تروق العيون بلألائها

---

(٧٧) يتيمة الدهر للثعالبى ١/ ٢٧٠ •

حبتهـــا البحار بأمواجها وسحب السماء بأنوائهـا
كأن تدفـــق تيـــارها يـــداك تفيض بنعمائهـــا
وجـــودك أغزر من جريهـا وخلقك أعـــذب من مائهـا

وهو هنا يصور هذه البركة بأنها قوراء كالفلك المستدير ، وتسر العيون وتروقها بالماء الذى ينساب فيها كاللآلىء ، وقد حبتها البحـار بأمواجها وسحب السماء بغيثها ومطرها ثم يعرج الشاعر بمـــدح ممدوحه حيث يقول :

كأن تدفق الماء فيها يداك تفيض بالنعمى على المحتاجين وذوى الحاجة كما أن جودك أغزر من جرى هذه البركـة ، وخلقك السامى الرفيـع أعذب من مائها •

والشاعر فى هذه المقطوعة يشبه هذه البركـة القوراء بالفلـك المستدير ، كما يصور الماء فيها باللآلىء ، ويشبه تدفق الماء فيها بيدى الممدوح تفيض بالنعمى على المحتاجين وذوى الحاجة ، ويبالغ الشاعر فقد جعل جود الممدوح أغزر من جرى هذه البركة ، وقد جعل خلقـه أعذب من مائهـا •

ولاشك فى أن الشاعر قد أحاط بهذا الموصف احاطة تامة،ورسم الصورة الكلية للبركة واستخدم فى أثنائها كثيرا من الصور الجزئيـة ساعدت الشاعر أن يجسم لنا هذه البركة وأن يبرزها للسامع والقارىء، وكل ذلك يشهد باجادة الشاعر وتفوقه الفنى •

وكثيرا ما كان يخلو الشاعر للشراب ، وكـأنه لا يجد متعتـه فى الشراب الا فى أحضان الطبيعة الســاحرة الفـاتنة ، وها هو يقول فى الورد والنرجس(٧٨) :

---

(٧٨) يتيمة الدهر للثعالبى ٢/٢٦٤ •

زمن الورد أظـرف الأزمـان وأوان الربيع خـيرأوان
أدرك النرجس الجنى وفـزنا منهمـا بالخدود والأجفـان
وأدرهـا عذراء وانتهـز الا مكان من قبل عائق الامكـان
فى كؤوس كأنها زهر الخشخشا ش ضمت شـقائق النعمان
فهى أولىمن العرائسان زفت بعزف النـايات والعيـدان

والشاعر كما قلنا مغرم بالخمـر والطبيعة معا يجد فى الطبيعـة متعته ولذتـه ، فهو يأوى اليها ويستظل بظـلالها الوارفة ويجـد فى أفيائها النعيم كله والحياة كلها ، وهو يضيف الى هذه المتعة متعة أخرى هى احتساؤه للخمر فى ربوع هـذه الطبيعة الخـلابة ، وكثيرا ما نرى الشاعر يصور الربيع والورد والنرجس ويمزج كل هذا بوصف مجالس الشـراب •

وهو هنا يقول : ان زمن الورد هو أظرف الأزمان وموعد قـدوم الربيع خير الأزمنة ، وها هو الورد يدرك النرجس وفاز الشاعر بالورود التى تشبه الخدود ، والأجفان التى تغض الطرف حياء وخجلا يشبهها بالنرجس الذى يرنو بطرف خفى على استحياء •

ثم يطلب من سـاقيه أن يدير كأس الخمر فى كؤوس كأنهـا زهر الخشخاش ضمت شقائق النعمان ، ففى هذا البيت تشبيهان : فقد شبه كؤوس الخمر بزهر الخشخاش وشبه ما تحتويه هذه الكأس بشقائق النعمـان •

وأخيرا يقول : الخمر أولى من العرائس حين تزف بعزف النايات والعيدان •

وهكذا كان أبو الفرج الببغاء شاعرا وصافا فى مجال الطبيعـة ، والحديث عن الببغاء فى شعر الطبيعة لا ينتهى فشعره ينم عن شاعرية خصبة وتصوير رائع وعبقرية لماحة فذة •

٤ ــ خصائص وسمات شعر الطبيعة فى العصر الحمدانى :

بعد هذا العرض الممتع لشعر الطبيعة فى العصر الحمدانى ، وبعد أن قمنا بتحليل النماذج الشعرية تحليلا مبنيـــا على القواعد النقدية ، يمكن أن نستنتج أهـــم الخصائص والســـمات الفنية لشعر الطبيعـــة فيما يلى :

١ ــ يتميز شعر الطبيعة بأنه يبلغ حد الذروة من الجمال،ويزدان بالألوان الرائعة والمناظر الجذابة التى تسر العين وتبهج اللب،والطبيعة تنقسم عندهم : الى روضيات ومـــائيات وزهريات وثلجيـــات ، وكان (فن الزهريات) من ابتكار الصنوبرى ، وكلها صور مســـتوحاة من الطبيعة وسحرها وجمالها وألوانها الزاهية البراقة .

٢ ــ كان للشعراء قدرة فائقة على التصوير والتجسيم والتشخيص، واستطاعوا أن ينقلوا الينا الطبيعة ، بريشة فنان حاذق ومصور بارع وعبقرية لماحة فذة وشاعرية صادقة .

٣ ــ كان للشعراء ذوق خاص فى وصف الطبيعة ، وكانوا يصفون الطبيعة من داخل أنفســـهم وروحهم ووجدانهم ، اذ كانوا شـــديدى الحس بها وشديدى العشق لها .

٤ ــ كثيرا ما نجد للشعراء لوحات فنية رائعة للطبيعة ، تدل على مقدرة فى مجال التصـــوير ، وتدل من جهـــة أخرى على شـــاعريتهم ونبوغهم وابداعهم الفنى .

٥ ــ يتميز الشعراء فى وصف الطبيعة أنهم يصلون الى درجـــة (الاحساس بالجمال) ، وهذه درجة عالية من درجات الرقى فى مجال الشـــعر ، ويتميزون بأنهم ذواقون للجمال الذى أودعه الله فى الطبيعة والكـــون .

٦ ــ العاطفة الأساسية فى مجال شعر الطبيعة ، انما هى الاعجاب والروعة بما يشهده الشاعر من مظاهر الكون والطبيعة الخلابة .

٧ ــ يتميز شعر الطبيعة فى هذا العصر بجزالة الأسلوب وفخامة الألفاظ وفحولة الصياغة ورقة المعانى وسلاستها ، كما كان الشعراء يكثرون من الاستعارات البارعة والتشبيهات المركبة والطباق والمقابلة والجناس ومراعاة النظير ، الى غير ذلك من الفنون البديعية الأخرى ..

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ...

د٠على محمد على طلب
الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد
فى كلية اللغة العربية بأسيوط